نهاية التاريخ في فلسفة (نيتشه): بين المعقول واللامعقول

■ د. سارة دبوسي[1]

ملخّص

تُقدِّم هذه الورقةُ البحثيّة رؤيةً نقديّة استقرائية حول قراءة (نيتشه) لفلسفة التاريخ، وفهم أسئلتها الوجودية الغامضة، التي مثَّلَت مُنعرجًا فكريًّا حاسمًا في تاريخ الفكر الغربي برمّته، باعتباره أسهَمَ من خلال قراءته الجينيالوجية[2] للتاريخ، في العبور من مرحلة الحداثة إلى مرحلة ما بعد الحداثة، ومن ثَمَّ تجاوز التصوُّرَ الفلسفيَّ الغربي الرامي إلى بناء تاريخ الإنسانية لا هدمه، من خلال خَلْقه لمفاهيم جديدة تَخدم الحضارةَ الإنسانية في مرحلة ما بعدَ الحداثة.

سعى (نيتشه) إلى جعل فلسفته تتكلَّم عن عصره، وما اتَّسم به من ضعف ووَهن، وهو ما يُفسِّر نفورَه منه ورفضَه، واعتبارَه ضربًا من الانحطاط والوَهن الفكري، الذي يجبُ تَغييرُه وتجاوُزه، عبر إيجاد مفاهيم جديدة تخدم الإنسانية، إلا أن هذه الفلسفة قد أوقعَتْه في جملة من المَزالق الفكرية والعقدية، التي جعلت منها موضعَ جدل فكريٍّ واسع المَدى، فكيف فَهِمَ (نيتشه) إذن التاريخَ؟ ووفقَ أيِّ أُسُس شيَّدَ بُنيانَه الجينيالوجي في فلسفة التاريخ؟ وما هي أهَمُّ المزالق الفلسفية التي وقعَت فيها فلسفتُه؟

الكلمات المفتاحية: نيتشه، فلسفة التاريخ، الجينيالوجيا، الفلسفة الغربية الحديثة، الإنسان الأرقى ، إرادة القوة، العَوْد الأبدي.

---

1 - جامعة تونس المنار- تونس.

2 - المنهج الجينيالوجي في الفلسفة النيتشوية يعني البحث في مسألة القيَم و"تَعريتها" من الأقنعة الأخلاقية والعادات والدِّين و"فضح" أصولها، باعتبار أنّ القيَمَ السائدة مجرَّدُ أكاذيب وأوهام موروثة من المجتمع، أو مفروضة بواسطة سلطة تبعث على النِّفاق والانحطاط والوهن والمرض!

مقدمة

مثَّلَت قراءةُ التاريخ وتفسيرُه، وفقًا لتصوُّرات فكريّة مختلفة، موضعَ اهتمام الإنسان منذ وُجد على وجه الأرض، ولا جدال في ذلك، باعتبار أنَّ الإنسانَ كائنٌ تاريخيٌّ بامتياز، دَفعَه انتماؤُه إلى التاريخ ومحاولة تفسيره إلى إنتاج جُملة من الفلسفات، التي تصبُّ في فهمِ سرِّ وجوده في الكون، وعلاقته به وبخالقه؛ وبلوغِ إجابات تتماشى وتطلُّعاته الوجودية والتاريخية. ولا أدلَّ على ذلك من ملازمة هذا المبحث للفكر البشري على امتداد الزَّمان، وهو ما أفرز جُملة من التساؤلات الفلسفية المُتعدِّدة المَشارب والاتِّجاهات على طول التاريخ البشري.

مثَّل البحثُ في مسألة التاريخ الإنساني موضعَ اهتمام خاصٍّ لدى كثير من الفلاسفة والمهتمِّين بالوجود البشري في عموميته، وبلغَ الجدلُ حولها ذروتَه مع ظهور الفلسفة الغربية الحديثة، حيث صار الاهتمام بقراءة التاريخ من المشاغل الفلسفية التي اجتذبت عددًا كبيرًا من الفلاسفة والمُفكِّرين، الذين سَعَوا إلى تفسير التاريخ وفَهمِه على نحو أفضل، وتداولوا بينهم عددًا من الأطروحات الفكرية، التي تبحثُ في فلسفة التاريخ وتفسيره، وفهم أسئلته الوجودية الغامضة؛ بهدف الإفادة من ذلك في بناء حضارتهم ومستقبلهم، ولنا في فلسفة فريدريك (نيتشه) خيرُ شاهد على هذا الاهتمام بالتاريخ؛ ففلسفته مثَّلَت "ثورة فكرية" عارمة، هزَّت تاريخَ أوروبا الحديث، وقلَبَت جملةً من الأُسس والمبادئ الفكرية، التي كانت سائدةً في أوربا، والتي شَيَّدَ بُنيانَها الفلاسفةُ السابقون لنيتشة، وفقًا لتصوُّراتهم الفكرية المختلفة، التي تراهن دائمًا على بناء تاريخ الإنسانية لا هدمه. فكيف فهم (نيتشه) إذن التاريخ؟ ووَفق أيِّ أُسُس شيَّد بُنيانه الجينيالوجي في فلسفة التاريخ؟ وما هي أهمُّ المزالق الفلسفية التي وقعَت فيها فلسفته؟

أولًا: (نيتشه) قارئًا شرسًا للتاريخ

من المعلوم أنَّ قراءة (نيتشــه) للتاريخ قد اختلفت وتعارضَــت في بعض الأحيان مع قراءات غيره من الفلاسفة السابقين له، منذ الحقبة الأفلاطونية حتى الكانطية، ذلك أنَّ تلك الفلسفات قد سَعَت إلى تأسيس التاريخ الفكري الغربي وتشييد بنيانه، وفقًا لقيَم ومعايير عقلية مُحدَّدة، تبحث في حقيقة الوجود وتســعى لفهم أسراره، لكنَّ ما قدَّمَه الفلاسفةُ السابقون لم يَرُقْ لـ (نيتشه)، بل نظرَ إليه على أنَّهُ بناءٌ فاسدٌ لا يَصلح للحضارة، ويَحسُنُ التخلُّصُ منه وهَدمُه، فسَعى إلى تحطيمه وتجاوزه؛ والعَمل على إرساء حياة جديدة متحرِّكة باستمرار تَسعَدُ بها الإنسانية، ومن خلال تناوله لمسألة القيم وتقييمها رفض (نيتشــه) القول بها، مُنطلقًا من نقد نظرية المُثُل الأفلاطونية، وبيان تهافتها، مُعلنًا في كتابه الهام "هكذا تكلَّم زرادشت" أن العالَم الحقيقيَّ مَحضُ خُرافة ولا وجودَ لــه، كرَدٍّ على "العالَم العُلويّ الحق" عند (أفلاطون - Plato)، أو ما يُســمَّى "ملكوت الرَّبّ" عند المسيحية، وهكذا بدأ نقدَه للتاريخ انطلاقًا من التصوُّر الأفلاطوني والمَسيحي عن الحقيقة، مُعلنًا رفضَه المُطلَقَ للفكرة القائلة بوجود عالَمَيْن مُتقابلَين (عالَم المادة مُقابل عالَم المُثُل).

قدَّمَ (نيتشه) أيضًا ضمن كتابه "جنيالوجيا الأخلاق" تحليلاً تاريخيًّا عميقًا لنشأة القِيَم الأخلاقية وتطوُّرها، محاولاً في ذلك تجاوُزَ "التصوُّر الأفلاطوني"، الذي يَضع القيمَ الســامية للوجود في عالَم المُثُل (الســماء)، ناشــدًا بذلك تغيير مكان القِيَم من السماء إلى الأرض، ومن الأبدية إلى التاريخ، معلنًا بذلك رفضَه للزُّهد الذي ســاد جُلَّ الفلسـفات الســابقة له، والتي قدَّسَت وجودَ الله، واعتبرتْه الحاكِمَ الأســمى للوجود، الــذي نَحتكم إليه، لذلك، دعا إلى ضرورة التخلِّي عن هذه الفكرة، لأجل "تحرير الإنسان"، وتكريس إرادته الحُرّة لاكتساب الشجاعة؛ يقول: "ما يَعنيه المَثَلُ الأعلى للزُّهد هو أنَّ شــيئًا ما مُفتقَدٌ، أنَّ الإنســان كان مُحاطًا بفراغٍ مُخيف، لا يَعرِفُ كيف يُبرِّرُ ويُؤكِّد نفسَه، وأنَّه يُعاني من مشكلة أن يَجدَ لنفسه معنًى، ولكنَّ مُشكلتَه ليست في المُعاناة نفسِها، ولكنْ في عدم وجود إجابة عن صرختِه المُتسائلة 'لماذا أُعاني؟'"[1].

اعتبر (نيتشه) إذن، أن تقديس الله الذي عمَّقَته المَسيحية قد زاد من معاناة الإنسان، وأسهَمَ في تدمير حياته، من خلال شعوره بالذَّنب والخطيئة، التي أفضَت به إلى الزُّهد وكُرِه الحياة، لذلك، رفضَ ذاك التاريخ، وسعَى إلى تجاوُزِه من خلال نقدِه نَقدًا بنّاءً، داعيًا إلى ضرورة الإيمان بالحقيقة

1 - فريدريش نيتشه: في جنيالوجيا الأخلاق، ص168.

بـدلاً عن المُثُل العليا للوجود، والمُتأمِّل لكتاباته يَلحَظُ منذ الوَهلة الأولى اختلافَه عن غيره من الفلاسفة والدارسـين في تناول مسألة التاريخ عامةً؛ وذلك لكونه تَجاوز النَّظرةَ النَّمطيّةَ له، التي تَعتبر أنَّ التاريخ مُجرَّد سِجلٍّ للماضي، نستطيع من خلاله التنبُّؤَ بقوانين نَبني عليها المُستقبلَ، كما ذهبَت إلى ذلك المدرسةُ التاريخية، وإنما نظرَ إلى التاريخ باعتباره يُمثِّل مُشكلةً فلسفيّةً وجودية، لا مَوضوعًا للقراءة فحسـب، وهو ما يُؤكِّدُه قولُه: "أيُّ فائدة للتاريخ إذا انحصرَ في كونِه تَعليمًا عَقيمًا بغير حيويّة ومَعرفة؟... نحن نَحتاج التاريخ من أجل الحياة لا لكي نُديرَ ظهورَنا للحياة."[1].

شيَّد (نيتشه) مشروعَه الفكريَّ على النَّقد البنّاء، الذي أقامَه في قراءته للتاريخ، وذلك إيمانًا منه بضرورة إخضاع جُلِّ القِيَم الموروثة إلى المُسـاءلة والتَّقييم؛ من أجل أن يجعل لوجود الإنسـان معنًى ما، لا أن يَسـتمرَّ في الوجود على محكِّ الصُّدفة واللامعنى، فهو القائل: "بماذا نُؤمِنُ؟ من هنا يجب أن تُحدَّدَ أهمِّيةُ كلِّ الأشياء من جديد."[2]، فالتاريخ عندَه ليس ذاك التَّعليم العقيم الفاقد للحيوية، فذاك في نظره من شـأنه أن يُدمِّرَ الأمّةَ، وإنَّما هو النّابـع من صميم إرادة القوة الدافعة نحو التَّغيير والإبداع في الحياة، باعتباره دائمًا في صلةٍ بها، والحياة عندَه هي إرادة القوة، والأخذ بهـا دون الارتداد إلى الخلف، لذلك يُصنِّف (نيتشـه) التاريـخَ إلى ثلاثة ضروب وهي: التاريخ التَّذكاري، والعتيق، والنَّقدي.

1 - التاريخ التَّذكاري

يَمتاز هذا النوعُ من التاريخ في تصوُّر (نيتشه) بتعزيز الحياة للإنسان، لكي يَندفع نحوَها بكلِّ قـواه المُفعَمة بالإرادة والفعل، من أجل صُنع الأفعـال البطولية المُمكِنة في الزَّمن، ويُثبِتُ ذلك فيلسـوفُ المِطرقة من خلال ذِكره للأبطال الذين صنعوا التاريخ، مثل: (نابليون - Napoleon)، والحركة النازية التي قادها (هتلر - Hitler) بألمانيا؛ فهؤلاء هم من يَهَبُهم التاريخ في نظَره "العَوْد الأبديّ" في الحياة، يقول: "من السَّـهل أن يتصـوَّرَ المرءُ كلَّ ما أعنيه بذلك، أنيِّ أعني طائفةً من الحيوانات الكاسرة الشَّقراء، عرقًا من الغزاة والأسياد، مُزوَّدا بتنظيم قتاليٍّ دونمَا تردُّد أو تَفكير."[3].

1 - عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، ص203.
2 - فريدريش نيتشه: العلم الجذل، ص219.
3 - فريدريش نيتشه: الأخلاق أصلها وفصلها، ص81.

التاريخ في فلسفة (نيتشه) هو مصدر الشَّجاعة والقوة، ولا يَفقَهُه إلا مَن امتلك هذه السِّمات، لكي يعيش الحياةَ الحاضرة، أي العظمة والمجد الذي يَصنَعُه الأبطالُ، الذين لهم قدرةٌ على قلب الحياة وتأسيسها من جديد، وَفقَ قِيَمٍ يَصنعونَها، من خلال القوة والشجاعة التي يَمتازون بها، على خلاف تاريخ العبيد والقطيع الذين يَسحبونَ البطولاتِ إلى خيال من غير المُمكن العَودةُ إليه، لأنَّه يَرمز للحقد والكُره والضَّعف؛ "... لم يُغفِلْ (نيتشه) مخاطرَ استخدام هذا النَّوع من التاريخ. فعندما يكون الدّارسون له من البشر الذين يتَّسمون بالقوة ويَمتلكون إرادةَ الفعل، أي عندما يَتناوله بشرٌ عُظَماءُ، فإنَّهم يَستلهمون منه الشَّجاعةَ، ويتعلَّمون من آثار الماضي، ويُحوِّلون هذا التَّعلُّم إلى ممارسة، من أجل تعزيز الحياة، [...]، أمّا إذا تناولَ هذا النَّوعَ من التاريخ بشرٌ يتَّصفون بالضَّعف، فإنَّهم يُحوِّلون آثارَ الماضي إلى أصنام جامدة."[1].

2 - التاريخ العتيق

يتَّسم هذا التاريخ في تصوُّر (نيتشه) بتمجيد الأسلاف والمحافظة على كلِّ ما ورثوه لأجل خدمة الحياة، أي التَّمسُّك بالماضي وعيش الحاضر فيه دون تجديد له، "... يُشبِّهُ (نيتشه) هذا النَّوعَ من التاريخ بالشجرة الميِّتة من جذورها إلى أغصانها، لأنَّه يُوجِّه الاهتمامَ إلى الجذور فقط، مُتجاهلاً الأغصانَ، وهو ما يُؤدِّي في النهاية إلى مَوت الاثنين: الجذور والأغصان، فلا وُجودَ لشجرة بلا أغصان تُعَدُّ دعامتَها بما تَحمله من أوراق"[2]، ويَرفض (نيتشه) هذا الضربَ من التاريخ، لأنَّه لا يُساعدُ على صُنع الحاضر، ولا يُمكِنُ مُمارَسةُ الحياة بقوة من خلاله، لكونه يَدفع نحوَ الجُمود والرُّكون، لذلك راهنَ على نقده، ودعا إلى تَفكيكه؛ لأنَّه لا يُنتِجُ الجديدَ، بل يُضعِفُ الحَياةَ، لذلك يَحثُّنا على التعامُلِ معَه بقسوةٍ، وإنتاج تاريخٍ آخر بديلٍ عنه.

3 - التاريخ النَّقدي

يُمثِّلُ الدِّراسة النقدية للتاريخ الإنساني بمختلف أشكاله، لذلك يَدعونا (نيتشه) عَبره إلى وضعِه أمام مَحكمةِ التَّشكيك، ومن ثَمَّةَ تَحطيمه إذا كان مصدرًا للضَّعف عبر القوة، من خلال

1 - عطيات أبو السعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، ص188.
2 - م.ن.، ص.ص. 205-206.

طـرح طبيعة جديدة تتجـاوزُ الطَّبيعةَ البشريّةَ القديمة، أما إذا كان مصـدرًا للقوة والحياة فيَجوز العملُ به، قائلاً: "ماتَ بُوذا إلا أنَّهم استمرُّوا قرونًا طويلة يَعرضون ظِلَّهُ في كهف عظيم مُخيف، ماتَ اللهُ، لكنَّ من طبيعة البشر أنَّه رُبَّما لآلاف السِّـنين ستَبقى هناكَ كهوفٌ تَعرِضُ ظِلَّهُ، ونحن بدورنا علينا أن نقضيَ على ظِلِّه أيضًا."[1].

يَصف (نيتشه) عَيْش الحاضر، وفقَ أحداث التاريخ الماضية، بالعَيشِ في كهف مُخيف؛ لأنَّه لا يُقدِّم لنا سوى الجمودَ والتَّكرارَ في الأفكار البالية، لذا يَدعونا إلى امتلاك القوة لأجل محاكمته، وعيش الحاضر بعيدًا عنه انطلاقًا من تجاربنا الخاصة، لا من تجارب أسـلافنا، وما اتَّسـمَت به تجاربُهـم من ظلمـة وجُمود؛ لأنَّ الحياة في تصـوُّره لا تُبنى على التاريخ فحسـب، وإنَّما على تَحطيمه أحيانًا، يقول: "من أجل بناءِ مَعبدٍ لا بدَّ من هدمِ مَعبدٍ آخر."[2]، ويتَّضح من ذلك أن فَهم (نيتشـه) للتاريخ تجاوز القولَ به والعمل وفقَ قواعده إلى التركيز على البُعد النفسيِّ، من خلال القول بإرادة القوة الصادرة عن الإنسـان الأعلى، التي تَستطيع محاكمةَ هذا التاريخ، والتَّشكيكَ فيه، لأجل تجاوُزِه وصُنعِ حاضرٍ يَخدم الحياةَ بدلَ الزَّجِّ بها في كهف التاريخ المُظلِم الجامد.

ثانيًا: حركة التاريخ في فلسفة (نيتشه)

شيَّد (نيتشه) بُنيانه الفلسفي في قراءته للتاريخ وَفقًا لفكرة "إرادة القوة"، وهو ما جعله يَختلف عن غيره من الفلاسفة، حيث مثَّلَت فلسفتُه منذ بداية نشر أعماله أواخر القرن التاسع عشر وحتى اليوم مَوضِعَ جدل واهتمامٍ واسـع من قِبَل الدّارسـين والمُهتمِّين بالشـأن الفكري عمومًا، فهو صاحب مفاهيم "إرادة القوة"، و"العَدَمية"، و "الإنسان الأعلى"، و"موت الإله"، و"العَوْد الأبديّ" ...إلخ. وهذه المفاهيم وغيرها كان لها تأثيرُها العميق في الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث، حيث أثارت أفكارُه جدلاً واسـعًا، أفضى إلى تفسيرات متضاربة ومُتعدِّدة في آنٍ واحدٍ، حتى إنَّ بعضَ التصوُّرات قد جرى تطويعُها لأغراض سياسية، بعيدة كلَّ البُعد عما أراده لها صاحبُها.

وعلى خلاف سابقيه من الفلاسفة الوجوديين كـ (شوبنهاور - Schopenhauer) و (كيركجارد - Kierkegaard)، سـعَت الفلسفة النيتشـوية إلى البحث المُعمَّق في أُسس الحياة البشرية، من

1 - فريدريش نيتشه: الأخلاق أصلها وفصلها، ص107.
2 - فريدريش نيتشه: العلم الجذل، ص175.

خلال الاحتفاء بالجسد وإعطائه أهمِّيةً بالغة، لذلك بحث في جملةٍ من المفاهيم التي تُعزِّزُ وجودَ الجسـد، وتُثبت مكانتَه في الوجود، شأن القول بإرادة القوة، التي اعتبرها أصلَ الحركة والحياة؛ فهي المحور الأساسيُّ لضمان الاستمرار في الوجود لدى مختلف الكائنات الحية؛ فالحياة عند (نيتشه) لا يُمكِن لها أن تتجلَّى في معانيها الأكثر نقاءً وصفاء إلا عند ارتكازها على منطق القوة، ولا أدلُّ على ذلك من تفسيره للاستبداد الكَنَسي في القرون الوسطى بأوروبا، وما أفرزَهُ من قوة فكرية، نتجَت عنها النَّهضة الأوروبية. ولكن كيف تجلَّى مفهوم القوة في فلسفته؟

1 - فلسفة القوة

إن المتأمِّل للطَّرح الفلسفيِّ النيتشوي، حول مفهوم "إرادة القوة"، سوف يتبيَّن له أنه قدَّمَ نقدًا عميقًا وبنّاءً في آن واحد للتاريخ بصفة عامة، ولثقافة العَصر الرُّومنسية على وجه الخصوص، وما انتابَها من تشاؤُم، خاصّةً مع (شوبنهاور)، الذي دعا إلى العُزوف عن الحياة لتجنُّب آلامها. لذلك سَعى (نيتشه) إلى تجاوُزِ ذلك من خلال القول بـ"إرادة القوة"، التي تأخذُنا إلى إرادة الإقبال على الحياة وحُبِّها، فكتب (نيتشـه): "... وبقدر ما تكون الحياةُ قويّةً، بقدر ما يكون العالَم المَوجود أكـثرَ خصوبة"[1]، ليُؤكِّد بذلك عـلى أهمِّية وجود مفهوم القوّة داخلَ الحيـاة البشرية؛ حيث إنَّ الغايـة الكامنة خلفَ ذلك هي الاحتفاء بالجسـد، الذي طالما وقعَ تحت الاحتقار والتَّقزيم من خلال الدَّعوة إلى تَجاهُله والتخلِّي عنه، ولذلك فإن وجود القوة سـوف يُسهِمُ في تحقيق سعادة الإنسـان داخل هذا العالم؛ فالقوة عند (نيتشـه) تمثِّل جوهرَ الحياة وأُسَّها، وليس مُجرَّد خاصِّيّة ثانوية مُكمِّلة للوجود البشري، وهذا ما أعلنَه على لسـان (زرادشـت): "... لقد أفصحَت الحياةُ دائمًا أن أتفوَّقَ على ذاتي"[2]. بمعنى أن الإصرار النيتشوي على القوة يَحمل في طيّاته إرادةً للحياة بعيدةً عن عبثيّة التَّشاؤُم والشَّفقة التي أقرَّها "الرُّومانسيُّون"[3] وخاصة (شوبنهاور).

حاول (نيتشه) من خلال إرادة القوة تجاوُزَ النَّظرة السَّلبية للحياة، وما اكتنفَها من زُهد ورفض،

1 - Edelman Bernard: Nietzsche un continent perdu, p. 53.

2 - صفاء جعفر: محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، ص111.

3 - حركة فكرية تعتنق مبدأ قابلية تفسير تاريخ الكون من منظور إنساني، وروحي؛ وإمكانية النجاة من خلال التأمل في الطبيعة.

مُعتبرًا أنَّ الخلاص الوحيد من عبثية الحياة، التي أقرَّها سابقوه، لا يكون إلا من خلال ترسيخ "ثقافة القوة"، لذلك راهنَ على ربط إرادة القوّة بالحياة، بالمعنى "الديونيزوسي"[1]، الذي يَربط كلَّ ما في الحياة باللَّذة بدون قيود، ولا يَختلف اثنان في القول بأنَّ (نيتشه) يُولي القوّةَ ضربًا من التَّقديس، لأنَّه يَعتبرها موجودةً في كل أرجاء الكون، حيث مثَّلَت إرادةُ القوة في فلسفته رمزَ الحياة وأُسَّها الذي لا يَميل، وليس مجرَّد سِمة من سماتها المتعدِّدة؛ إذ من خلالها استطاع نقدَ التَّفسير اللاهوتي المَسيحي للتاريخ، ودعمَ نَقدَه بفكرة العَوْد الأبدي، لأجل التحكُّم في مسار التاريخ وحركته. فماذا يَعني إذن (نيتشه) بهذا المفهوم؟

2 - العَوْد الأبدي

يختلف التفسير النيتشوي لمفهوم "العَوْد الأبدي" عن التفسير الذي قدَّمَه التاريخ لمفهوم المعاودة والتكرار، أي إعادة التاريخ لنفسه، من خلال تِبيانه أنَّ الحياةَ تُعاودُ نفسَها من خلال حضور الإنسان الأعلى التَّوّاق إلى بلوغ الكمال، ذاك الذي يَمتلك إرادةَ القوة لأجل بعثها من جديد، وفق قيم جديدة تَتماشى والحاضر، ففكرة "العود الأبدي" لدى (نيتشه) هي تعبير عن الخلود في الحياة، وهو في هذه الفكرة يختلف عن الفلسفات السابقة له والرافضة للفكرة أصلاً، ويرى فيها إنكارًا للحياة، وهذا ما يُسوِّغُ لخوفه من الموت والزَّوال.

ويَعني "العود الأبدي" عند (نيتشة) أنَّ جُلَّ الوقائع التي حدثت في الماضي ستُعاودُ نفسَها في المستقبل، فيصبح الماضي نموذجًا إرشاديًّا للمستقبل، وكأنَّه يُريد أن يُعلِن أبديّةَ الزَّمان، للهروب من تناهي الوجود الإنساني، من خلال تكرُّر أحداث التاريخ في دورات دون أيِّ شيء جديد، لِيُعيد الماضيَ نفسَه في المستقبل، يقول: "ويَعني هذا أنه ليس هناك أيُّ شيء جديد في

1 - نسبةً إلى "الإله (ديونيزوس)"، وهو إله النشوة والإسراف، ورمز الغريزة وقوى الطبيعة وانفلاتها من إدراكها، وهذا ما يُغذِّي ويُغني روحَ المُصادفة والعَشوائية والغرابة في الفن، من أجل التعبير "الحقيقي" عن عودة الإنسان إلى أصله الطبيعي – الحيواني، الذي يجعل الإنسان يَعيش في "تناغُم كوني"، ويُحرِّر إرادتَه، عكس "الإله (أبولوني)" الذي يُعبِّر عن الحلم والحكمة، ويُقيِّد شهوات وغرائز الإنسان ضمن أُطُر يَخلقها السّائدُ. لهذا (نيتشه) حاول العودة إلى أسطورة (ديونيزوس) للعمل على تحرير الشعوب من السلطة الذاتية، المتمثِّلة في العقل الأخلاقي الجمعي والقيم المتوارثة، التي يَعتبرها من أشكال "الاستبداد" المُتوارَث، فقدَّم نقدًا للحداثة عبر التراجيديا الإغريقية، حيث يَعتبر (نيتشه) الفنَّ إسرافًا وانتشاءً لا محدودًا، مُستوحًى من (ديونيزوس) الذي يُعبِّر عن إرادة القوة اللاعقلانية.

هذه الحياة المُعادة، وكلُّ ألم، كلُّ بهجة، كلُّ شيء، سوف يَعود إلينا مرّةً ومرات، كيف نستجيبُ لهذا الشـيطان؟ هل نُلقي بأَنفسـنا على الأرض ونلعَنُه، أم نُجرِّب الألمَ المُروِّعَ عندما نعرف أن المُقدَّسَ يتحدَّث إلينا."[1].

تبدو النظرة النقدية التي وجَّهها (نيتشـه) للتاريـخ رمزًا للتمرُّد ورَدِّ الفعل الجذري ضدَّ القراءة اللاهوتية (المسيحية واليهودية) للتاريخ الإنساني، من خلال كشفه لانحداره وتدهوره، وتسليطه الضَّـوء على الظَّلام الكامن فيه، لذلك رفضَه وسـعى إلى تحرير الإنسـانية منه، ولا يكون ذلك مُمكِنًا، في تصوُّره، إلا بظهور "إنسان جديد"، ففيمَ تمثَّلَت سماتُ هذا الإنسان؟

3 - الإنسان الأعلى

مَثَّل مفهومُ "الإنسـان" المُرتكَز الأساسيَّ في فلسفة (نيتشه)، لذلك حاولَ تحليل وجوده عبرَ التاريخ في ثلاث مراحل؛ لِيُبرهِنَ على تطوُّر الرُّوح عبر التاريخ، حيث يُشبِّهه في البداية بالجَمَل الذي يَحمل الأخلاق القديمة، في إشـارة منه إلى أخلاق القَطيع، التي يحملها الإنسـانُ الخانعُ للقيـم القديمة، ثم يتحوَّل إلى أسـد يُصارع التِّنِّين لأجل الانتصار على تلـك القيَم القديمة، ثم يتحوَّل إلى طفل يلعب ويُبدع قِيَمَه على لوحة التاريخ، في فلسفة (نيتشه) يمُثِّل الطِّفلُ الذي يرسم أحلامه على لوحة التاريخ "الإنسانَ الأعلى"، أي ذاك الإنسان الذي يتحرَّر من كلِّ الأثقال، ويَخلق عالَمًا جديدًا خاليًا من القِيَم القديمة البالية، من خلال إرادته وحُرِّيته، ويكون بذلك مُندفِعًا نحو الحياة، يقول: "إن الإنسان الأعلى هو ذلك الأقرب إلى الحياة."[2].

يُؤكِّد (نيتشه) على اهتمام "الإنسان الأعلى" بالحياة والقوة المادية واللَّذة، وما الإنسان الأعلى في تصوُّره إلا إنسانُ "ما بعدَ المسيحية"، أي ذاك الإنسان الذي جاء بعد "موت" الإله المسيحي، الذي وَسَـم الحياةَ بتهمة الخطيئة والذَّنـب، وما هذه القِيَم في تصوُّره إلا خـداعٌ وافتراء أبدعته الكنيسة المسيحية انتقامًا من الحياة عينها، ومن ثَمَّ راهنَ (نيتشه) على زوال "الإنسان المسيحي" وإلهِه، حتى يَتسـنَّى لـ "الإنسان الأعلى" إصلاحُ ما أفسده من خلال القوة والإرادة التي يَحملها في ثناياه، وبذلك يُسـهم في ردِّ الاعتبار للحياة الدنيا؛ لكونه يُبارِك الحياةَ المادية ويُضفي عليها

1 - عطيات أبو السعود: الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، ص198.

2 - Edelman Bernard: Nietzsche, un continent perdu, p. 53.

ضَرْبًا من الجمال ولا يَلعَنُها، فهذا الإنسان هو مَن يُحارب "استبداد" القِيَمِ القديمة، ويَرفع شعارَ "موت الإله" لأجل إحياء الحياة التي لا تَعرف نهايةً!

فموت الإله هنا يَعني به "فيلسوف المطرقة"[1] تحطيمَ الميتافيزيقا، وتحطيم أُسُسها الفلسفية، وبناءها من جديد وفق قيم جديدة تكون أدواتها المعرفية هي الحسُّ والتَّجربة، وتكون "إرادة القوة" هي مُقدِّمة ظهور إنسان جديد يُسيِّر الحياةَ، وهو "الإنسان الأعلى"، الذي تتجسَّد فيه الحضارة التي يَنشدها (نيتشه)، يقول: "في الحقيقة، للمرء طاقةٌ على كلِّ ذلك، متى كان قد وُلد من أجل وجود كمينٍ تحت الأرض ومحارب؛ فشأن المرء أن يَعود دومًا من جديد إلى وضح النُّور، شأن المرء أن يعيش دومًا من جديد ساعتَه الذَّهبية، وأن يَنتصر، ومن ثَمَّ أن ينتصب هناك، كما وُلد، غيرَ قابل للانكسار، مُتوتِّرًا، مُتأهِّبًا للجديد، للأمر الأعسر والأبعد، كما قوس لا تزيدها الشِّدة إلا انتصابًا."[2].

ممّا تقدَّم يَظهرُ أن التوجُّهَ الفكريَّ، الذي انتهجه (نيتشه) في قراءته للتاريخ، كان هدّامًا، باعتباره رفضَ التَّاريخَ وسعى إلى هدمه وإعادة بنائه، ومن ثَمَّ أسهمت "الفلسفة النيتشوية" في عبور الحضارة الغربية إلى مرحلة فكرية جديدة تبناها الفكر الغربي، وهي مرحلة ما بعد الحداثة، فقد رأى في التاريخ الإنساني ضربًا من المأساة الضَّرورية، وأنه يتوجَّب على الإنسان أن يكون قويًّا حتى يستطيع التغلُّبَ على مأساويّته بدلَ الوقوع في الضَّغينة والنقمة، باعتبار أنَّ كلَّ شيء يَفنى ويموت، وحيث أنه لا وجود في فلسفة نيتشه للعدل الإلهي أو الحياة الآخرة، لذلك نجدُه يُميِّز بينَ ما أسماه "أخلاق السّادة" و "أخلاق العبيد"، كما يَدعو صراحةً إلى أخلاق القوة التي تُميِّز الأقوياءَ المُقتدرين على الحياة. لكن طابع فلسفته المختلف عن غيره قد أوقعَه في جملة من المزالق الفكرية والعقدية. ففيمَ تمثَّلت إذن هذه المزالق؟

ثالثًا: قراءة في أهم المزالق الفكرية والعقدية لفلسفة (نيتشه)

كان لفلسفة (نيتشه) أثرٌ كبير في تشكيل الفكر الغربي والمجتمع الغربي برمته؛ وذلك لكونه

---

1 - يذهب (نيتشه) إلى أن الأخلاق والقيم والإيمان تتناقض مع سعي الإنسان إلى الحقيقة، واعتقد أن الأديان وُجدت للضعفاء، فسعى إلى محاربتها لتمجيد القوة وما يُسمِّيه "أخلاق السادة"، فلُقِّب بـ "فيلسوف المطرقة" لأنه هادمٌ للأفكار والأُسس.

2 - فريدريش نيتشه: في جنيالوجيا الأخلاق، ص8.

أثَّر في كثير من المُفكِّرين والرموز السياسية التي اهتمَّت بفلسفته، ولكنَّ المتأمِّل لفكره بعيون ثاقبة سيجد أنه قد وقع في الخطأ في مناسبات عدّة، وهذا ما جعل من فلسفته تَخضع للنَّقد والمساءلة على الدَّوام؛ فقد كانت قراءة (نيتشه) للتاريخ فاقدةً لجملة من القيم الأخلاقية التي تحتاجها الإنسانية لأجل فهم الحياة والاستمرار فيها، فمن خلال تأكيده على فكرة العَوْد الأبدي مثلاً، وجعلها قيمة إنسانية مطلقة، قد خرج عن السِّياق الكوني الحاكم للوجود، باعتبار أن مسير الوجود نحو تكامل دائم مستمرٍّ ينتهي إلى المطلق: ﴿**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**﴾ [العلق: 8].

وإذا كان (نيتشه) قد تكلَّم على فكرة الدَّيمومة، ولم يُقِرَّ بفكرة الحياة الأخرى، فإنَّه كان مدفوعًا برغبة محمومة في القطيعة مع الثقافة الكنسية، التي روَّجَت للتَّصوُّرات المُتشائمة السابقة للحياة والتاريخ، والتي ترفض عالَمَ الحياة وتُقدِّس عالَمَ السَّماء، والواقع أنه إذا ما تفحَّصنا جيدًا قراءته للتاريخ فسنجدها قائمة على ضرب من الغرور والمغالطة، باعتبار أنها قائمة على قِيَمٍ تَتنافى ونواميس الكون خاصة، وأنَّ حديثه عن الدَّيمومة وموت الإله يتعارض مع أولى بديهيات الفطرة البسيطة، حيث خرج عن السِّياق المعقول، وألقى بنفسه في الإلحاد والكفر، ويتجلَّى الإلحادُ علنًا في فلسفته من خلال انتصاره لفكرة موت الإله، والمُراهَنة على وجود الإنسان الأعلى الذي لا يَهاب شيئًا، فلم يعد الدِّين معه يتناقض مع العلم، وإنما أصبح أداةً لإذلال الإنسان؛ "فقد أعطى (نيتشه) للإلحاد نظرةً بنائية، لِيُصبح مقوِّمًا أساسيًّا في بناء الاتجاه الحداثي في أوروبا."[1].

لا بدَّ من الإشارة هنا إلى أن صناعة التاريخ، ضمن فلسفة (نيتشه)، لم تعد في قبضة من هو أنبل وأعدل الناس، وإنَّما باتَت بيد من يَمتلك القوة والحياة، وصارت بذلك مُوجَّهةً للأقوياء فحسب، ولا مجال لوجود الضعفاء فيها، "فصناعة التاريخ ليست لمن هو أرقُّ قلبًا وأرحم وأعدل، وإنَّما للأقوى الذي يضرب بيد من حديد دون رحمة للضُّعفاء."[2]، ومن خلال تحليل نصوص (نيتشه)، نجده يَرقى بالإنسان الأعلى إلى مرتبة الأُلوهية، لأنَّه يَسِمُه بكلِّ سمات الكمال والدَّيمومة، وفي المقابل يُقِرُّ بـ"موت الإله"، وهو ما يَتنافى مع المنطق والفطرة الإنسانية التي تُقِرُّ بحاجة الإنسان إلى مرجعيّة عُليا أخلاقية وتشريعية، والمُتأمِّل لفلسفة (نيتشه)، سيَجد أنَّ هذا الأخير كان مُتعطِّشًا لفكرة الخلق والإبداع، التي غابت عن الفكر المسيحي في القرون الوسطى، لذلك وجَّهَ سهامَ

1 - جمال مفرج: الإرادة والتأويل، ص83.
2 - عبد الوهاب المسيري: دفاع عن الإنسان، ص195.

فكره نحو إيجاد هذا الإله الغائب والغير ملموس، من خلال اختراعه لمَثَلٍ أعلى بديل عن الله، وهو الإنسان الأرقى القويُّ جسديًّا، والذي بمستطاعه تغيير الحياة.

إنَّ تمجيد (نيتشه) للإنسان الأعلى من خلال فلسفة التاريخ، واعتباره أن وجود هذا الإنسان لن يكون إلا في الجنس الألماني، هو ما ترتَّب عليه تأثير مُبالَغٌ فيه من طرف بعض الحكام، ولنا شاهد على ذلك في الإبادات الجماعية التي ارتكبها (هتلر) في حق غير المنتمين للعرق الآري، وتمجيده للجنس الألماني، وهو ما حدا بالبعض إلى اعتبار فلسفته ضربًا داعمًا للتطرُّف العرقي والقومي، خصوصًا بعد تلك الوقائع الأليمة.

إنَّ القراءةَ المُعمَّقة لفلسفة (نيتشه) تكشف لنا مغالطاته وزيف أسلوبه في قراءته المُبالَغ فيها للتاريخ، وذلك لكونه أطنبَ في قلب القِيَم من خلال رفضه لكلِّ فضيلة، وهو ما جعل أفكارَه تَجنح نحو الخيال لا المنطق، ويكون بذلك قد سعى إلى تَغطية عجزِه المَنطقي في فهم القيم الإنسانية المعقولة للتاريخ الإنساني والحضاري.

خاتمة

مثَّلَت فلسفةُ (نيتشه) مُنعطَفًا فلسفيًّا في تاريخ الفكر الغربي؛ حيث أسهم من خلال قراءته الجينيالوجية (المادية اللاأخلاقية) للتاريخ في العبور من مرحلة الحداثة إلى مرحلة ما بعد الحداثة؛ وذلك من خلال محاولته هدمَ مَقولاتها الأساسية، وسعيه إلى خلق مفاهيمَ جديدة تخدم الحضارة الإنسانية في مرحلة "ما بعد الحداثة"، حيث إنَّ مجموعَ القيم، التي أوجدها من خلال نقده للتاريخ الحضاري، أدَّى إلى إيجاد جُملةٍ من المفاهيم البَديلة التي أقرَّها من خلال مفاهيم: "إرادة القوة"، و"العود الأبدي"، و"الإنسان الأعلى"، الذي ذهب إلى قدرته على تغيير الوجود عبر تفعيل القوة فيه، وتجاوز ما أسماه "أخلاق العبيد"، ليرتقي إلى ما أسماه "أخلاق السّادة"، ليصل فيما بعدُ إلى الإقرار بـ "موت الإله" وحلول "الإنسان الأعلى" مكانه، مُتجاوزًا بذلك جُلَّ القِيَم والأُسُس الأخلاقية، التي تُقرُّها الفِطرةُ السَّليمة المُنادية بالحُسن الذّاتي العقلي للجمال والعدل والاستقامة الأخلاقية، وما أكَّدَ عليه كذلك الفِكرُ الفلسفيُّ منذ الحقبة الأفلاطونية وُصولًا إلى الكانطية.

بيدَ أن فلسفته كانت مُعبرِّةً عن عصره، وما اتَّسَم به من ضعفٍ ووهن، زادته الكنيسةُ المسيحية بتعاليمها انحطاطًا أكثر، وهو ما أثار نفورَ (نيتشــه) منه، ورَفضَه له، وذلك لكون الكنيســة ألغَت دورَ الإنســان الفاعل في الوجــود، وآمنَتْ بوجود مَثَلٍ أعلى من كلِّ شيء، فاعتبر (نيتشــه) ذلك ضربًا من الانحطاط والوهن الفكري الذي يجب تغييره وتجاوزه، عبر إيجاد مفاهيم جديدة تكون إرادة القوة في مقدِّمتها.

وعلى الرغم من الأهمية التي حظيت بها الفلسفة النيتشوية، باعتبارها أسهمت في تغيير مسار الحداثة الفكرية من التشاؤم والركون إلى القيم المسيحية القروسطية الظلامية إلى التفاعل وإرادة الفعل في الوجود من خلال البحث عن قيم تخدم الإنسانية الحاضرة، إلا أنها وقعت في جملة من المزَالق الفكرية والعقدية التي جعلت منها أساسًا للمشاريع السياسية النازيّة والفاشيّة القَمعيّة.

لائحة المصادر والمراجع

باللغة العربية

1 - القرآن الكريم.

2 - أبو السعود، عطيات، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط1، 2002م.

3 - جعفر، صفاء، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، لا ط.، 1999م.

4 - المسيري، عبد الوهاب، دفاع عن الإنسان، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2003م.

5 - مفرج، جمال، الإرادة والتأويل: تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2009م.

6 - نيتشه، فريدريش، الأخلاق أصلها وفصلها، تر. حسن قبسي، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، ط1، 1981م.

7 - ــــــــــــــــــــــــــــ، العلم الجذل، تر. سعاد حرب، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2001م.

8 - ــــــــــــــــــــــــــــ، في جنيالوجيا الأخلاق، تر. فتحي المسكيني، دار سيناترا، تونس، ط1، 2010م.

باللغة الأجنبية

1 - Bernard, Edelman, Nietzsche, un continent perdu, Paris, PRESSES UNIVERSITAIRES DE France, 2000.